

الدكتور عبد السلام المسدي

” التفكير اللساني في الحضارة العربية ”

تونس ، دار العربية للكتاب ، 1979

بقلم فكونزية العلوي

لسانهم ، وبحوثاً في اللغة كميزة للجنس البشري ؟
لقد بحث العرب كغيرهم في اللغة بما انها اترب
شيء للانسان فهي الجسر الذي يصله بغيره . وهي
اداة التعبير عن كل حاجياته ورغباته . فاللغة كما
يقول الدكتور عبد العزيز الحياصي : « هي منا اكثر
مما لنا » .

ولكن الشائع هو ان التراث العربي لم يترك
لنا في هذا المجال الا دراسات محورها اللسان العربي
من نحو وصرف وبلاغة وعروض ... او نصوص تجدد
اللسان العربي باعتباره لغة اهل الجنان كما يذكر
ابن منظور صاحب (لسان العرب) في مقدمته :

« فان الله سبحانه وتعالى قد كرم الانسان
وفضله بالنطق عن الحيوان وشرف هذا اللسان
العربي بالبيان على كل لسان وكفى شرفا انه به
نزل القرآن وانه لغة اهل الجنان » .

او كما يذهب التوحيدى في (الامتاع والمؤانسة)
الى اعتبار انه سمع لغات كثيرة كلفة المعجم والروم
والهند والترك فلم يجد لهذه اللغات شيئا من نصوص
العربية .

لكن الواقع يثبت خلاف ذلك . فالتراث العربي

ان علم اللغة من اهم العلوم التي حظيت
على مر العصور باهتمام المفكرين ، وأكبر شاهد على
ذلك التراث اللغوي الغزير الذي بين ايدينا ، لكن
الحديث عن اللغة اختلف باختلاف المناهج والاهتمامات .
فمن المفكرين من خاض في البحث عن أصلها ونشأتها ،
فتساعل عن مصدر هذا الكلام الذي يتداوله الناس
ويتحاورون به : انراه هبة من لدن اله عظيم ام تراه
جاء نتيجة تواطؤ واصطلاح ؟ مثلما تم الخوض في
مقاسة اللغة باعتبار انها ميزت الانسان عن الحيوان
وسببت به الى اعلى مراتب المخلوقات . كما بحثوا في
مدى تعبير اللغة عن حقائق الوجدان الى غير ذلك من
المواضيع . هكذا نرى ان اللغة كانت في نفس الوقت
مادة البحث ووسيلته ومن ثم كانت صعوبة البحث
فيها وعسر الحديث عنها .

على ان الطرق لهذه القضية اختلفت من عصر
الى آخر ففي حين كان البحث يجول في مناهات غيبية
كالبحت في اصل اللغة مثلا ، صار الاتجاه اكثر علمانية
فصار الاهتمام متجها الى ما يسمى بالدراسة الاتية
او الصومية للغة . ولنا ان نتساعل عن مكان العرب
التدامي من كل هذا . هل بحثوا في اللغة مجردة بتقطع
ال نظر عن الاصل والنشأة ؟ ومعنى هذا هل تجاوزوا

بختلف أنواعه وأشكاله يزخر بإشارات بل أحيانا
بجمل واضحة متناسقة تنظر الى اللغة باعتبارها
ميزة للإنسان بقطع النظر عن انتسابه وموقعه
الجغرافى .

فالمتمضى لآثار العرب يجد حديثا ضائبا عن
الفرق بين صوت الحيوان والإنسان . كما تعترضه
تفسيرات دقيقة نمبا يخص الفرق بين الحديث
والعبارة واللفظ والقول والرمز والدلالة . كما يجد
البحث فى صلة اللغة بالفكر ... الى غير ذلك من
المواضيع التى تشغل بال اللسانيين المعاصرين .

فتمجيد العرب للسانهم واعتزازهم ببيانه وعمقه
وشموه وتقدسيهم لنصهم الذى ذكر لهم بوضوح ان
الله هو الذى علم آدم الاسماء كلها لم يعتمهم عن
اعمال العقل والخوض فى مسائل مجردة تخص اللغة
ككل لا اللسان العربى وحده . وتجدر الاشارة الى ان
اعتبار اللسان العربى اسما لسان لم يكن موقف
كل المفكرين قديما . اذ اتنا نجد من تنظن الى ان
اللسان العربى لا يفضل اى لسان آخر باعتباره
يقوم بوظيفة لا تختلف عن وظائف اللسان الاخرى .
وهذا بعد ثورة لا مثيل لها فى ذلك العصر الذى يجد
فيه العرب لغتهم وكيف لا يجدونها وهى لغة القرآن .
فقال ابن حزم فى كتابه (الاحكام فى اصول الاحكام) :
« وقد توهم قوم فى لغتهم انها افضل اللغات وهذا
لا معنى له لان اوجه الفضل معروفة .. وقد غلط
جالينوس فقال ان لغة اليونان افضل اللغات لان
سائر اللغات انها هى تشبه نباح الكلاب او نقيق
الضفادع وهذا جهل شديد لان كل سامع لغة ليست
لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكر
جالينوس ولا فرق » .

فملاحظ ان ابن حزم وغيره كثير قد تحرر من
تداسة اللغة بل اعتبرها وسيلة تخاطب كغيرها .
فاللغة مختلفة باختلاف الأزمنة والامكنة باعتبارها
اصطلاحية . ومن هنا يمكن ان نقول ان العرب بحثوا
خارج اللسان العربى وان كانت انطلاقاتهم منه .

وتطالعنا اليوم اول اطروحة دكتوراه تونسية
تمنحها الجامعة التونسية نالها صاحبها الدكتور عبد
السلام المسدى بملاحظة مشرف جدا .

وهى بعنوان التفكير اللسانى فى الحضارة
العربية . وتصدر عن الدار العربية للكتاب 1979 .

وتد اعترت لجنة المناقشة هذه الاطروحة
مغامرة فكرية ، ومنعرجا فى مسار البحوث اللغوية
الراهنة فى الوطن العربى . وتتمثل هذه المغامرة
فى خوض الدكتور المسدى غمار التراث العربى
الاسلامى بختلف أنواعه يستقره ويتقصى فيه
البعد اللغوي ويستنتج معادلات لسانية هى من
الاهمية بكان . ولعل ابرز الاستقراءات اللسانية
واطرفها على حد قول الدكتور عبد السلام المسدى
« انما توجد فى غير التراث اللغوي فعلا من ذلك مما
ضمنه علماء الكلام فى مؤلفاتهم وخاصة عندما تطرقوا
الى قضية الاعجاز القرآنى وقضية صفة الكلام
ضمن صفات الله فى علم الكلام . كما نجد لعلماء اصول
الفقه استطرادات لسانية هى على غاية من الدقة
منشؤها ضبطهم لطرق استنطاق النص اللغوي
واستخراج الاحكام الشرعية منه . وفى المستوى
الثالث نجد مادة التراث الفلسفى وخاصة عند
المناطق . ومعلوم ان كل ابواب علم المنطق تنطرق
بكيفية او باخرى الى قضايا لغوية . فكان فلاسفة
العرب بحكم اصلتهم اللغوية وانتمائهم الحضارى
يمزجون بين التقدير الفلسفى الخالص كما خلده
اليونان والتقدير العربى اللسانى الذى ياتى
بالطرائف الكاملة مما لم يهتد اليه لا أرسطو ولا من
جاء بعد الحضارة العربية من اللاتينيين وليس هذا
قدحا فى اليونان ولا فى الحضارة الغربية لان خصب
الفكر العربى قد تولد من اقتضاءات حضارية
محررها هو التفكير الاسلامى بختلف قضاياها
العقائدية وغير العقائدية » .

وتصدنا من الاشارة الى المضامين التى اعتمدها
الدكتور المسدى تبين ان الاطروحة انما هى تعامل
نعلنى مع التراث وليست نظرية مسبقة سلطت على
التراث تسليطا .

فالؤلف ذو ثقافة لسانية واسعة خولته قراءة
التراث بمنظار لسانى حديث ، فتوخى الاستنطاق
والتحليل دون التسرع الى الاستنتاجات الاعتباطية
او المسلطة . اذ انه يهدنا على كل فكرة بنص من
التراث على غاية من الدقة والوضوح مما لا يترك
مجالا للشك او التخمين .

هذا ولقد كان تكبير المؤلف فى المنطق تسليط
أضواء علم اللسان الحديث على التراث العربى فكانت
النية انجاز عمل يجمع بين مقولتى الاصاله والحداثة.

فنتطه الانطلاق من الناحية العلية المنهجية
« قد كانت بمثابة الفضول العلمي البريء الذي
تستوجبه تقاليد الاطروحات وخلال استنطاقنا للتراث
العربي اكتشفنا أن وراء الفكر اللغوي العربي
جملة من المقومات البدئية تخرج عن مجرد الانشغال
في ضبط اللغة العربية الى بسط نظرية حول الظاهرة
اللغوية بصفة عامة من حيث هي معطى كونسى
انسانى » .

العلوم اللسانية هذه الدرجة رغم الفترة الزمنية
التقصيرة التى نشأت فيها . وتناول كذلك موضوع
الحداثة والتراث : وتبيان منزلة استلهام العرب
لتراثهم التى هى بمثابة مولد التاصيل الفردي
الذي بانعدامه يبقى العرب في سجن الاخذ دون
المشاركة الفعالة .

وتعرض المؤلف الى النظرية اللغوية عند العرب
والعوامل التى ساعدت على نشأتها :

والفصل الاول بعنوان الانسان واللغة وفيه :

المسألة الاولى : اختصاص الانسان بالظاهرة
اللغوية .

المسألة الثانية : ما قبل اللغة

المسألة الثالثة : نظرية التوقيف الالهى .

المسألة الرابعة : التشريع الوضعى

المسألة الخامسة : المحاكاة الطبيعية

المسألة السادسة : نظرية النشوء والتناسل.

وتناول هذا الفصل التذكير الذي كان سائدا
عند بعض المفكرين العرب في علاقة الانسان باللغة .

فالمتفق عليه أن ميزة الانسان عن الحيوان هى
النطق ولا يخلو حد الانسان سواء اكان ذلك عن
الغلاسة أو المناطقة أو اللغويين من أبرز صفة
النطق عند الانسان . فهو الحيوان الناطق وهو
الحي الناطق الى غير ذلك ...

لكن الاختلاف كان فيما يخص اصل اللغة
فمنهم من يرى أنها هبة من الله باعتبار ان النص
القرآنسى ذكر أن الله هو الذي علم آدم الاسماء .
ومنهم من يرى أن اللغة هى من اصطلاح والا لما
تعددت الالسن عبر الامكنة والازمنة : فذهب البعض
الى ان اللغة فرضها الحكام على الرعية ليسهل
التخاطب ، ومنهم من ذهب الى أن رجال الفكر هم
الذين كونوا اللغة وفرضوها على الناس ، الى غير
ذلك من الآراء التى يطلها الدكتور المسدى تحليلا
ضائيا مستشهدا في ذلك بنصوص مختلفة من التراث.

وفي خاتمة الفصل الاول اشارات هامة تقييد
ان علاقة الانسان باللغة قد فرضت في تاريخ الفكر
العربى اشكالية مزدوجة اذ كانت المشكلة مركز
تجاذب اعتبارين مختلفين احدهما لساني وثانيهما
مذهبي عقائدي .

وفي هذا المستوى لاحظ المؤلف ان اللسانيات
المعاصرة في تاريخها للفكر البشرى كانت تهمل —
سواء عن سوء نية أو عدمه — بصفة نظيمة حظ
الحضارة العربية من بلورة الفكر اللغوي عامة .
فكان ان تساعل عن الدواعى التى دعت المؤرخين
الى تنز هذه الفترة وألتى تسبب انفصاما في تسلسل
حلقات الحضارة الانسانية .

فعمل الدكتور المسدى يرمى الى جملة في
الغايات :

اولها : الخروج من مجرد الحديث عن التراث
العربى وتقيته الى فك رموزه والتعامل الفعلى
معه .

ثانيها : تجاوز الاشارات العابرة لحقائق علم
اللسان في التراث العربى بغبة بسط نظرية شمولية
متكاملة .

ثالثها : سد الثغرة الاعتبارية في تسلسل الفكر
الحضاري الانسانى .

رابعها : بسط المقومات الاولى لمطاء فعلى
خصيب يقدمه الفكر العربى الى الفكر الانسانى

وتشتمل هذه الاطروحة على متن البحث وعدد
من الملاحق كالمصادر والمراجع ونهريس الاعلام
والمصطلحات والفهرس العام .

وينقسم متن الاطروحة الى مقدمة وثانى
عشرة مسألة تسبت على ثلاثة فصول .

فالمقدمة مخذل الى حوافز البحث وفيها يتعرض
المؤلف الى عدة قضايا هامة منها : سمس العلوم
الانسانية الى الوصول الى الموضوعية بموجب تسلط
التيار العلمانى على الانسان الحديث . وكيف ادركت

الفصل الثماني : المواضع .

- المسألة الاولى : اعتبارية الحدث الالسنسى
- المسألة الثانية : تحديد المواضع
- المسألة الثالثة : المواضع والمعقد
- المسألة الرابعة : من الاعتباط والتلازم
- المسألة الخامسة : توليد المواضع
- المسألة السادسة : اكتساب المواضع

يبدأ هذا الفصل بتحديد كل من معنى « المواضع » والاصطلاح والفرق بينهما رغم ما يبدو فيهما من تشابه فمفهوم الاصطلاح يستعمل في منظور زمانى ، ذلك لانه يتطلب تصريحا او تضمينا حضور مفهوم التوقيف .

اما متصور المواضع فانه قد استقل بنفسه في مناهج الطرق النظرية عند اعلام التفكير العربى . ولا يسعنا التعمير ضده الا بنبه « انعدام المواضع »

وفي مستوى المصطلح يتجلى الفارق بين المنظور الزمانى في مفهومى التوقيف والاصطلاح والمنظور الاينى في مفهوم المواضع .

ويدور هذا الفصل حول تظن العرب اللى مبدأ المواضع في اللغة واعتباطية الحدث الالسنسى . اي انه لا علاقة منطقية تربط بين الدال والمدلول سوى ما اتفق عليه اصحاب المجموعة الالسنسية الواحدة .

وتظنهم الى ان اللغة ما هي الا نظام علامات من جملة أنظمة اخرى مختلفة . وتبرز قيمتها في انها تعبر عن كل شىء بأيسر السبل . كما انه ليس للغة فضل على اخرى باعتبار ان كل قوم تواضعوا على نظام خاص من العلامات .

ثم خاتمة أهم ما ذكر فيها تظن العرب الى ان للانسان استعدادا فطريا للكلام لكن ذلك لا يكفى دون تعلم وممارسة . وهو ما يؤول الى اعتبار اللغة موجودا قائما في ذات الانسان ينقذ دائما تتوفر شرائط خروجه الى حيز الفعل .

الفصل الثالث : مقومات الكلام

- المسألة الاولى : الكلام والمكان
- المسألة الثانية : الكلام والزمان
- المسألة الثالثة : الكلام وفاعله
- المسألة الرابعة : الكلام والاضطرار
- المسألة الخامسة : الكلام والشمول
- المسألة السادسة : هوية الكلام

يتبع المؤلف في هذا الفصل الفكر العربى في النظرية اللغوية من خلال صورة الحدث الالسنسى المنجز فعليا . فبعد ان سعى الى تبين نظرية العرب من زاويتين أحدهما : تفاعل الانسان مع الظاهرة اللغوية باعتباره منشئا لها وناظرا في أمرها ، والثانية نوعية الوجود الذى تتم به اللغة من حيث هي كيان في ذاته .

اما في هذا الفصل فالمؤلف يرمى الى تحتسب مواطن النظرية اللغوية بالاعتماد على الحدث المنجز فعلا ومحاولة لضبط خصائص اللغة انطلاقا من تجسها في حدث الكلام .

لذا نجد الحديث في هذا الفصل عن الصوت وخصائصه الفيزيائية وأميتاز صوت الانسان عن تصويت الحيوان : وعن وصف الحروف ومبدأ الاقتصاد في الكلام ووظائف اللغة الى غير ذلك .

ويختم الدكتور المسدى مؤلفه ببيان مزايا الالسنسية المعاصرة . اذ يرجع اليها الفضل في منتهى بالتصورات الفعالة والمنهجيات الاختبارية . ومعنى هذا انها هي التى زودته بالالات والاضواء التى استطاع بفضلها الكشف عن اغوار التراث العربى الزاخر . وهى التى كما ينكر الدكتور المسدى : وفرت سبل التمازج بين حقول المعرفة . وهى التى اوصلته الى مرتبة التأليف الشمولى . لكن هذا العمل القيم لن يبقى مدينا للالسنسية المعاصرة لانه سيدها بزاز جديد ويسهم في خلق آفاق للبحث عديدة . فليست العملية مجرد أخذ فحسب بل هي أخذ وتمازج وعطاء فحسب .